الفصل الأول

نتائج تضحيات العلماء في الدنيا

ما دام أن غالبية العلماء يضحّون بالغالي والنفيس لا لهدف دنيوي إنما من أجل الله تعالىٰ .

فإنَّ الله سبحانه لن يضيع ذلك أبداً ، ففي الدنيا يفتح الله عليهم أبواب التوفيق والبركات ، ويلهم الآخرين أن يحترموهم ويقدّروهم ، ولنضرب أمثلة على ذلك :

روى الإمام ابن الجوزي أن الوزير عيسىٰ بن علي بن عيسىٰ كان يقول : ليت ابن أبي داود ـ وهو أحد العلماء الكبار (ت : ٣١٦هـ) ـ إذا مضينا إلىٰ داره يأذن لنا في الدخول!![1] .

وروىٰ ابن العبري أن الملك الناصر داود صاحب الكرك (ت : ٦٥٦هـ) كان يتردد إلىٰ شمس الدين الخسرو شاهي (ت : ٦٠٦هـ) يقرأ عليه كتاب عيون الحكمة للشيخ أبي علي بن سينا ، وكان إذا وصل إلىٰ رأس المحلة التي بها نزل الخسرو شاهي وأومأ إلىٰ من معه من الحشم والمماليك ليقفوا مكانهم ويترجّل ويأخذ كتابه تحت إبطه ملتفاً بمنديل ، ويجيء إلىٰ باب الحكم ويقرعه ويفتح له ويدخل ويقرأ ويسأل عما خطر له ثم يقوم ولم يمكن الشيخ من القيام له!![2] .

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم : ٦/٢١٨ .

(٢) تاريخ مختصر الدول : ٣٠٤ـ٣٠٥ .

وروىٰ ابن أبي أصيبعة أن ثابت بن قرة (ت : ٢٨٨هـ) كان له احترام خاص عند الخليفة العباسي المعتضد ، ففي يوم من الأيام كان المعتضد يمشي في بستان قصره مع ثابت ، وبعد قليل التفت المعتضد إلىٰ ثابت وقال : يا أبا الحسن ، لقد سهوت ووضعت يدي علىٰ يدك ، واستندت عليها ، وليس هكذا يجب أن يكون ، فإنَّ العلماء يعلون ولا يُعلون ! ![1] .

وروىٰ ياقوت الحموي أن محمد بن عبد الله بن طاهر أوكل مسألة تعليم أبنائه إلىٰ إمام النحو واللغة أحمد بن يسار (ت : ٩٠٣هـ) ، فأكرمه إكراماً لا مثيل له :

ظل ثلاث عشرة سنة يتناول الغداء معه علىٰ مائدته ، وفرض له أن يأخذ يومياً خبزاً فاخراً ولحماً كثيراً حين انصرافه إلىٰ منزله ، وجعل له ألف درهم شهرياً ! ![2] .

وروىٰ ياقوت الحموي قول الجاحظ (ت : ٢٥٥هـ) : أهديتُ كتاب الحيوان إلىٰ محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلىٰ ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلىٰ إبراهيم بن العباس فأعطاني خمسة آلاف دينار ! ![3] .

وروىٰ جمال الدين القفطي أن عالم البصريات الحسن بن الهيثم (ت : ٤٣٠هـ) قال ذات يوم : لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغني أنه ينحدر من موضع عالٍ وهو في طرف الإقليم المصري .

---

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ٢٢٤ .
(٢) معجم الأدباء : ٥/ ١٢٥ .
(٣) معجم الأدباء : ١٦/ ١٠٦ .

فازداد الحاكم بأمر الله (ت : ٣٧٦هـ) إليه شوقاً وسيَّر إليه جملة من مال وأرغبه في الحضور ، فسافر نحو مصر ، ولما وصلها خرج الحاكم للقائه والتقيا بقرية علىٰ باب القاهرة المعزية تعرف بالخندق ، وأمر بإنزاله وإكرامه[١] .

وروىٰ الخطيب البغدادي أن الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد طلب إحضار إمام اللغة والأدب : الفرّاء (ت : ٢٠٧هـ) وطلب منه أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب ، وأمر أن يفرد في حجرة من حجر الدار ، ووكل به جواري وخدماً يقمن بما يحتاج إليه حتىٰ لا يتعلق قلبه ، ولا تتشرف نفسه إلىٰ شيء حتىٰ إنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة ، وصير له الورّاقين وألزمه الأمناء والمثقفين ، فكان يملي والورّاقون يكتبون حتىٰ صنف الحدود في سنتين ، وأمر المأمون بكتبه في الخزائن ، فبعد أن فرغ من ذلك خرج إلىٰ الناس وابتدأ علىٰ كتاب المعاني . . .[٢] .

بل كان كثير من الخلفاء والوزراء يحضرون مجالس العلماء ، وذلك بغية الاستفادة من علومهم ومعارفهم .

روىٰ الخطيب البغدادي قائلاً : لقد حرز علىٰ من حضر مجلس سليمان بن حرب الواشجي البصري (ت : ٢٢٤هـ) أربعين ألف رجل ، وكان مجلسه عند قصر المأمون ، فبنىٰ له شبه منبر ، فصعد سليمان وحضر حوله جماعة من القواد عليهم السواد ، والمأمون فوق قصره قد فتح باب القصر ، وقد أرسل ستر يشفّ وهو خلفه يكتب ما يملي ! ![٣] .

---

(١) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ١١٤ـ١١٥ .
(٢) تاريخ بغداد : ١٤/ ١٥٠ .
(٣) تاريخ بغداد : ٩/ ٣٣ .

وروىٰ المقريزي أن الملك العادل أبا بكر بن أيوب (ت : ٦٣٧هـ) كان يحب العلم وأهله ويؤثر مجالسهم ، وكان شغفاً بسماع الحديث النبوي ، وحدث وبنىٰ دار الحديث الكاملية بالقاهرة ، وكان يناظر العلماء ويمتحنهم بمسائل غريبة ، من فقه ونحو ، فمن أجاب عنها حظي عنده ، وكان يبيت عنده بقلعة الجبل عدد من أهل العلم علىٰ أسرّة بجانب سريره ، ليسامروه ، وكان للعلم والأدب عنده إنفاق ، فقصده الناس لذلك ، وصار يطلق الأرزاق الدارة لمن يقصده لهذا[1] .

وكرّم الحكام العلماء ، وذلك عن طريق تسمية المدارس والشوارع بأسمائهم ، مثال ذلك : مدرسة ابن الجوزي ، مدرسة ابن رشيق .

وشارك الحكام العلماء في أفراحهم ومصائبهم ، مثال ذلك خروج الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلىٰ الميدان لحضور صلاة الجنازة ، وذلك عند وفاة ابن عساكر المؤرخ والعالم الكبير (ت : ٥٧١هـ)!![2] .

أجل!

فالعلم له أفضلية علىٰ المال ، وهذا قرار الله تعالىٰ في القرآن الكريم : وذلك عندما فهّم الله نبيه سليمان مسألة امتنّ بها عليه وقال : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩] .

لكن عندما أعطاه الملك الواسع ، لم يمنّ عليه ، بل قال تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص : ٣٩] .

ورضي الله عن حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس عندما

---

(١) خطط المقريزي : ٢/ ٣٧٧ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي : ١٣/ ٧٥ .

شرح قيمة العلم ومكانته بقوله :

العلم أفضل من المال ، لأن العلم ميراث الأنبياء ، والمال ميراث الفراعنة ، ولأن العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال ، ولأن العلم لا يعطيه الله إلا لمن يحبه ، والمال يعطيه من يحب ومن لا يحب ، ولأن العلم لا ينقص بالبذل والإنفاق ، والمال ينقص بهما ، ولأن صاحب المال إذا مات انقطع ذِكْرُه ، والعالم إذا مات فذكره باق .

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم علىٰ الهدىٰ لمن استهدىٰ أدلاّء
وقدْر كل امرئٍ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء

وقد ضرب السلف الصالح أروع الأمثلة في الأدب مع العلماء ، من ذلك :

كان الشيخ شمس الدين الديروطي إذا مرّ علىٰ فقيه ، ينزل عن دابته ويسوقها أمامه ، ويقبّل يده ، ثم لا يركب حتىٰ يبعد عنه جداً ويتوارىٰ عنه بجدار أو نحوه ، مع أنه بلغ في العلم الغاية ، وشرح (المنهاج) وغيره!![1] .

وجاء سهل بن عبد الله التستري أبا داود السجستاني ـ صاحب السنن ـ فقيل له :

يا أبا داود ، هذا سهل بن عبد الله قد جاءك زائراً .

قال : فرحّب به وأجلسه .

فقال : يا أبا داود لي إليك حاجة .

قال : وما هي ؟

قال : حتىٰ تقول قضيتها مع الإمكان .

---

(١) الأنوار في صحبة الأخيار للإمام الشعراني : ١١٢ .

قال : قد قضيتها مع الإمكان .

قال : أخرج لي لسانك الذي حدَّثت به عن رسول الله ﷺ حتىٰ أقبِّله .

قال : فأخرج له لسانه ، فقبله ! ![1] .

حتىٰ الخلفاء والأمراء والملوك كانوا يعرفون الفضل لأصحاب العلم ، فيبادرون إلىٰ خدمتهم وإجلالهم .

روىٰ الإمام السيوطي رحمه الله تعالىٰ أن أبا معاوية الضرير قال :

أكلت مع هارون الرشيد يوماً ، ثم صبَّ علىٰ يدي رجلٌ لا أعرفه .

ثم قال الرشيد : تدري من يصبُّ عليك ؟

قلت : لا .

قال : أنا ، إجلالاً للعلم ! ![2] .

وروىٰ الإمام الشيرازي أن الشعبي قال :

أمسك عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بركاب زيد بن ثابت رضي الله عنه فقال :

تمسك بركابي وأنت ابن عم رسول الله ﷺ ؟

قال : إنا هكذا نصنع بالعلماء ! ![3] .

وروىٰ الإمام السيوطي أن أحمد بن حمدون قال :

دخل هارون بن زياد مؤدب الواثق إليه ، فأكرمه إلىٰ الغاية .

فقيل له : من هذا يا أمير المؤمنين ، الذي فعلت به هذا الفعل ؟

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان : ٢/ ٤٠٤ .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي : ٢٨٤ .

(٣) طبقات الفقهاء : ٤٦ .

قال : هذا أول من فتق لساني بذكر الله وأدناني من رحمة الله[1] .

وروىٰ ابن خلكان قصة فيها الدليل الواضح علىٰ قدر العالم في الدنيا ، والتي تعلو علىٰ كل قيمة وقدر ، أوليس الله تعالىٰ هو الذي قرر ذلك في القرآن الكريم : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .

وفي ذلك عبرة للذين يتكالبون علىٰ حطام الدنيا وما فيها من مناصب وأموال!!

كان المأمون ـ الخليفة العباسي ـ قد وكّل الفرّاء يلقن ابنيه النحو ، فلما كان يوماً أراد الفراء أن ينهض إلىٰ بعض حوائجه ، فابتدرا إلىٰ نعل الفرّاء يقدّمانه له ، فتنازعا أيهما يقدّمه ، فاصطلحا علىٰ أن يقدّم كل واحدٍ منهما فرداً ، فقدماها ، وكان المأمون له علىٰ كل شيء خبر ، فرفع ذلك الخبر إليه ، فوجّه إلىٰ الفراء ، فاستدعاه ، فلما دخل عليه قال : من أعزّ الناس ؟

قال : من أعزّه الله ، فجعله أميراً للمؤمنين .

قال : بل من إذا نهض تقاتل علىٰ تقديم نعليه وليّا عهد المسلمين حتىٰ رضي كل واحد أن يقدّم له فرداً!

قال : يا أمير المؤمنين ، لقد أردتُ منعهما عن ذلك ، ولكن خشيتُ أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها أو أكسر نفوسهما عن شريعة حرصا عليها ، وقد روي عن ابن عباس أنه أمسك للحسن والحسين ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ ركابيهما ، حين خرجا من عنده ، فقال له بعض من حضر : أتمسك لهذين الحدثين ركابيهما وأنت أسنّ منهما ؟

---

(١) تاريخ الخلفاء : ٣٤٤ـ٣٤٥ .

فقال له : اسكت يا جاهل ، لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل!

فقال له المأمون : لو منعتهما عن ذلك ، لأوجعتك لوماً وعتباً ، وألزمتك ذنباً . وما وضع ما فعلاه من شرفهما ، بل رفع من قدرهما ، وبيّن من جوهرهما ، ولقد ظهرت لي مخيلة الفراسة بفعلهما ، فليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاثة :

عن تواضعه لسلطانه ، ووالده ، ومعلّمه العلم .

وقد عوضتهما بما فعلاه عشرين ألف دينار ، ولك عشرة آلاف درهم علىٰ حسن أدبك لهما!![1] .

حتىٰ إن الأمراء والخلفاء يعرفون هذه المكانة الرفيعة التي حاز عليها العلماء في الدنيا والآخرة ، لذلك كانوا يتمنون أن يكون لهم ذلك!!

روىٰ ابن خلكان أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال : لأن يكون لي مجلس من عبيد الله ـ أحد الفقهاء السبعة ـ أحبَّ إليَّ من الدنيا .

وقال : والله إني لأشتري ليلة من ليالي عبيد الله بألف دينار من بيت المال .

فقالوا : يا أمير المؤمنين ، تقول هذا مع تحرِّيك وشدّة تحفظك ؟

قال : أين يُذهب بكم ؟ والله إني لأعود برأيه وبنصيحته وبهدايته علىٰ بيت مال المسلمين بألوفٍ وألوفٍ ، إن في المحادثة تلقيحاً للعقل ، وترويحاً للقلب ، وتسريحاً للهم ، وتنقيحاً للأدب[2] .

وروىٰ ابن خلكان قال : وقفت في كتاب (النصوص علىٰ مراتب أهل

---

(١) وفيات الأعيان : ٦/ ١٧٨ .

(٢) وفيات الأعيان : ٣/ ١١٦ .

الخصوص) عن أشعث بن شعبة المصيصي ، قال :

قدم هارون الرشيد الرقة ، فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك رضي الله عنه ، وقد تقطعت النعال ، وارتفعت الغبرة ، فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من بُرج الخشب ، فلما رأت الناس قالت : ما هذا ؟

قالوا : عالم أهل خراسان قدم الرقة ، يقال له : عبد الله بن المبارك .

فقالت : هذا والله الملك ، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشُرط وأعوان ! ![1] .

وروىٰ الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ قال :

روينا بأسانيد متعددة عن مقاتل بن صالح الخراساني قال :

دخلت علىٰ حماد بن سلمة رضي الله عنه ، فإذا ليس في البيت إلا حصير ، وهو جالس عليه ، ومصحف يقرأ فيه ، وجُراب فيه علمه ، ومطهرة يتوضأ فيها ! فبينا أنا عنده جالس إذ دقّ داق الباب ، فقال :

يا صبية ، اخرجي ، فانظري من هذا ؟

قالت : هذا رسول محمد بن سليمان .

قال : قولي له : يدخل وحده .

فدخل ، فسلّم ، وناوله كتاباً .

فقال : اقرأهُ .

فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن سليمان إلىٰ حماد بن سلمة ، أما بعد ، فصبّحك الله بما صبّح به أولياءه وأهل

---

(١) وفيات الأعيان : ٣/ ٣٤ .

طاعته ، وقعت مسألة ، فإنا نسألك عنها .

فقال : يا صبية ، هلمّي بالدواة ، ثم قال : اكتب في ظهر الكتاب :

أما بعد ، وأنت صبّحك الله بما صبّح به أولياءه وأهل طاعته ، أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحداً ، فإن وقعت مسألة ، فائتنا ، فتسألنا عما بدا لك ، وإن أتيتني ، فلا تأتني إلا وحدك ، ولا تأتني بخيلك ورجلك ، فلا أنصحك ، ولا أنصح نفسي ، والسلام .

فبينا أنا عنده جالس ، إذ دقّ داقٌّ الباب ، فقال :

يا صبية ، اخرجي ، فانظري من هذا ؟

فقالت : محمد بن سليمان .

قال : قولي له يدخل وحده ، قال : فدخل ، فسلّم ، ثم جلس بين يديه ، فقال : ما لي إذا نظرت إليك امتلأت رعباً ؟

فقال حماد : سمعت ثابتاً البناني يقول : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « العالم إذا أراد بعلمه وجه الله تعالىٰ ، هابه كل شيء ، وإذا أراد أن يكثّر به الكنوز ، هاب من كل شيء » .

فقال : ما تقول ـ يرحمك الله ـ في رجل له ابنان ، هو عن أحدهما أرضىٰ ، فأراد أن يجعل له في حياته ثلثي ماله ؟

فقال : لا ؟ ويرحمك الله ، فإني سمعت ثابتاً البناني يقول : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إنَّ الله عز وجل إذا أراد أن يعذّب عبداً بماله ، وفّقه عند موته لوصيةٍ جائرةٍ » .

قال : فحاجةٌ .

قال : هات! ما لم تكن رزيّة في دين .

قال : أربعين ألف درهم تأخذها ، فتستعين بها علىٰ ما أنت عليه .

قال : اردّدها علىٰ من ظلمته بها .

قال : والله ما أعطيتك إلا ما ورثته .

قال : لا حاجة لي فيها ، ازوها عني ، زوىٰ الله عنك أوزارك .

قال : فغير هذا .

قال : هات ، ما لم يكن رزية في دين الله .

قال : تأخذها فتقسمها .

قال : فلعلي إن عدلت في قسمتها أن يقول بعض من لم يرزق منها : إنه لم يعدل في قسمتها ، فيأثم! ازوها عني زوىٰ الله عنك أوزارك!![1] .

أجل!

في الدنيا يرفع الله مكانة صاحب العلم ، حيث يرتفع بارتفاعه عن حطام الدنيا ، لأن هدفه شيء آخر ، وهو رضوان الله تعالىٰ وخدمة عباده ، لذلك فقد نرىٰ في عالمنا أناساً مِن المتعلمين لا يجد الواحد منهم عشاء ليلته ، ومع ذلك تراه يعيش العزة والرفعة ، لا يأبه من شيء ، ولا يحزن علىٰ شيء ، وكأن حاله كما كان صحابة رسول الله ﷺ ، عندما كان الواحد يردد أمام الأشهاد : إنا نعيش في سعادة لو علمت بها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف!!

لأن مصدر عزته من عزة الله ، ومصدر قوته من قوة الله ، ومصدر عدم خوفه من أحد أنه معلّق القلب بالواحد الأحد سبحانه وتعالىٰ .

---

(١) بستان العارفين للإمام النووي : ٩٥ـ٩٦ .

فهو موقن تماماً بأن الذي شقّ موضع الفم متكفّل بأن يملأ المعدة ، وأن الذي ركّب الرأس علىٰ الجسد هو الوحيد القادر علىٰ أن ينهي الحياة!!

لذلك فلا حزن لديه علىٰ ما فات ، ولا خوف مما سيأتي ، إنما القضية هي التسليم لله :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ١٣١] .

نسأل الله أن يلهمنا الإخلاص في القول والعمل إنه على ما يشاء قدير .

* * *